الفلاح الذي رأس الولايات المتحدة!

في سنة ١٨١٩م، وصلت إلى محلة «جنتزفيل» في إقليم «أنديانا» شمال غربي أمريكا–أسرة صغيرة مؤلفة من أربعة أفراد، هم: «توماس لنكولن» عميدها الفلاح الأمي الأجير، وزوجته الضعيفة البنية الشاحبة الوجه «نانسي هانكس» وإبنهما «إبراهام» الذي لم يتجاوز السابعة من عمره، وإبنتهما «سارة» التي تصغره بسنتين أو ثلاث سنوات.

وكان واضحًا أن هذه الأسرة المهاجرة من إقليم «كونتكي» البعيدة تعاني بجانب فقرها المدقع أثقالًا أخرى من الجهد والقلق والأعباء ، فقد طال سفرها في القفر الوحش المترامي المخيف الذي قطعته، ولم يكن لها من طعام خلال ذلك السفر الطويل الشاق سوى ما يوفق عميدها إلى صيده من طير أو حيوان!..على إنها برغم ذلك كان عليها أن تواجه ألوانًا أخرى من التعب والعناء، قبل أن تستقر في كوخها الجديد الذي أقامته لنفسها، في اليوم الأول لوصولها، من جذوع الأشجار وفروعها، متخذة من ورقها الجاف فراشًا، ومن بقايا الجذوع والغصون وسائد ومقاعد ومناضد!..ثم بدأ عميد الأسرة منذ اليوم التالي جهاده الجديد في الزراعة وما إليها، ليكفل لها القوت..والإستقرار المنشود في الموطن الجديد!

والدته تعلمه القراءة والكتابة

وهناك في جانب من الكوخ البدائي البسيط، وضع الوالدان كيسًا من

التبن لينام فوقه إبنهما الحبيب «إبراهام» أو «آب» كما كانا يدعوانه من قبيل التدليل، ولم يكن في طاقتهما أن يزوداه عدا ذلك بغير الضروري من الغذاء، أما الغطاء والكساء والحذاء وما إليها، فكان حسبه منها سراويل من جلد الغزال، لا تفارق بدنه ليل نهار. وأما تزويده بالتعليم، فلم يكن هناك مكتب يمكن إرساله إليه كالمكتب الأولي المجاني الذي أمضى فيه شهرين في «كونتكي» قبل أن تغادرها الأسرة، ولكن أمه كانت تعرف القراءة والكتابة، فعز عليها أن يشب أميًا كأبيه، وأخذت على عاتقها أن تعلمه في أوقات فراغها بقدر ما تستطيع!

ولم يكن لدى الأم أي كتاب غير نسخة قديمة من الإنجيل فإستعانت بها على أداء تلك المهمة، وكان لذكاء «آب» ورغبته القوية في التعلم، فضلًا عن فرط تعلقه بوالدته، أكبر الأثر في تيسير مهمتها، فسرعان ما أتقن القراءة والكتابة، ثم أخذ في حفظ ما تيسر من الإنجيل عن ظهر قلب، فما مضت سنتان وأوشك أن يتم العاشرة حتى كان قد حفظ الكثير من آياته، ووعى معانيها وأهدافها، وأصبح لهذا مرموقًا بالإعجاب والتقدير من والديه وجميع عارفيه!

عامل في مزرعة

أبت الأقدار إلا أن تمتحن الصبي الصغير الفقير، بلون جديد من الشقاء والحرمان، فما أتم العاشرة من عمره حتى فجع بوفاة والدته الحبيبة الحنون. ومنذ الشهور التالية، بدأ «آب» جهاده في سبيل العيش عاملًا في المزارع المجاورة لكوخ الأسرة، لقاء أجر زهيد، ولكن شغفه بالقراءة لم يزايله، وأتيح له أن

إستعار كتاب «طواف الحاج» للمؤلف الإنجليزي «بانيان» فقرأه مثنى وثلاث ورباع حتى علق بذاكرته أكثر ما فيه، ثم إستعار كتبًا أخرى وقرأها على هذا النحو، وفي مقدمتها «خرافات أيسو ب» و«روبنسون كروزو».

ووقع في أثناء ذلك حادث كان له أكبر الأثر في تشجيع الصبي على الإستزادة من العلم والمعرفة، فقد تزوج والده، وجاءت الزوجة الجديدة إلى الكوخ، ومعها أطفالها الثلاثة من زوجها الأول، وقطع مختلفة من الأثاث، وشيء غير قليل من الفراش والأدوات المنزلية. وهكذا أتيح له–لأول مرة في حياته– أن ينام في فراش مريح. ووجد من عطف ربة الكوخ الجديد عليه وعلى شقيقته ما ألهج لسانه بالثناء عليها والتحدث بفضلها حتى آخر حياته!

نبوءة عجيبة

ووقعت في يده بعد ذلك نسخة من كتاب «حياة وشنطن» زعيم الثورة الأمريكية، فإستأثرت بإعجابه قصة تلك الثورة وما قام به ذلك الزعيم العظيم من أعمال خالدة، وبدأت الأماني الكبار والأحلام الذهبية بالمستقبل المجيد تثير خياله، وتملك عليه تفكيره. وحدث يومًا أن عنفته جارة للأسرة على إثر مشاجرة بينه وبين ولدها، فقالت له ساخرة:

– ماذا تظن أن ستكون في المستقبل؟

فما كان جوابه إلا أن قال لها على الفور: «أظن أني سأكون رئيسًا للولايات المتحدة!»

وقد أكسبته أعماله اليدوية قوة بدنية كبيرة، ولكنه لم يكتف بذلك فكان يخصص جانبًا من أوقات فراغه القليلة لممارسة الألعاب الرياضية، حتى صار من البارعين المعدودين في القفز والمصارعة وغيرهما!

دراسته للقانون

وحينما بلغ الثامنة عشرة من عمره سنة ١٨٢٧، وجد لنفسه عملًا آخر، بدا له في أول الأمر أسهل وأحسن، وكان هذا العمل الجديد هو القيام بمهمة البيع في متجر بالقرب من القرية، ولكنه ما لبث قليلًا حتى ضاق به فتركه غير آسف عليه. على أن الفترة التي أمضاها في ذلك العمل أفادته من جهة أخرى، إذ قرأ خلالها كتاب «القوانين المعدلة لولاية أنديانا» فإتجه منذ ذلك الحين إلى دراسة القانون، وحرص في الأشهر التالية على قضاء الأيام التي يخلو فيها من العمل في التوجه إلى المحكمة التي كانت تعقد على مسافة خمسة عشر ميلًا من القرية. فكان يقضي هناك أكثر النهار في تتبع القضايا المعروضة، والإستماع لما يدور فيها من المرافعات والمناقشات!

ومن طريف ما يذكر، أنه إستمع هناك يومًا لمرافعة بليغة من المحامي «جون بريكنردج» فأعجب بأسلوبه، وما كاد الحكم يصدر ببراءة موكله المتهم بالقتل، حتى إندفع من بين جموع النظارة ومد إليه يده يريد مصافحته وتهنئته، ولكن ذلك المحامي المشهور لم يلتفت إليه، وإنصرف غير عابيء بالفتى الريفي الفقير المتحمس له!

وفي السنة التالية، أتيح للفتى وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره أن يغادر قريته لأول مرة إلى مدينة «أورليان» إذ إستأجره صاحب سفينة ذاهبة إليها لحراسة ما بها من بضاعة، في مقابل دولارين في الأسبوع عدا الطعام. وقد كان لهذه الرحلة أعمق الأثر في نفس «إبراهام لنكولن» الفلاح الأجير الفقير الطموح، ففي خلالها وقف بنفسه على ألوان الحياة التي يحياها كبراء المدن وأثرياؤها، وشاهد للمرة الأولى أسواق الرقيق حيث يساق بعض الناس في السلاسل والأغلال، وينتقلون بالبيع والشراء من سيد إلى سيد، يفعل بهم ما يشاء، دون أن يكون لهم أي حق في الرفض أو المعارضة وهكذا نبتت في ذهنه فكرته السامية الخالدة التي وقف حياته على الدعاية لها وتنفيذها..فكرة تحرير العبيد!

عودته أجيرًا بالمزارع والمتاجر

لم تطل بعدئذ إقامة أسرة لنكولن بمحلة «جنتزفيل» أكثر من سنتين، فقد رأى «إبراهام» أن ينتقل بالأسرة إلى ولاية «الينوي». وحملتهم جميعًا إلى هناك عربة ريفية كبيرة يجرها أربعة ثيران! قضت أيامًا ولياليَ في سفر شاق رهيب!

وما حملت الأسرة رحالها في موطنها الجديد حتى أخذ «إبراهام» في إقامة كوخ لها من جذوع الشجر، ومن هذه الجذوع نفسها أقام سياجًا حول قطعة من الأرض البكر، ثم بدأ يستصلحها للزراعة، ويلقن إخوته من أبيه خير الوسائل لبلوغ هذه الغاية. ولما إطمأن إلى قيامهم بزراعة الأرض إستأنف العمل أجيرًا في المزارع المجاورة، مخصصًا الجانب الأكبر من أجره

لمساعدة الأسرة، بل كثيرًا ما كان يختصها بكل ما يحصل عليه من أجر عمله اليوم العادي، ثم يقوم بأعمال إضافية مجهدة لكي يحصل على ما ينفقه في شئونه الخاصة كشراء الملابس والكتب وما إليها. وقد إضطر لكي يحصل على سراويل جديدة في تلك الأيام إلى أن يقوم في أوقات فراغه بقطع ما يزيد على ألف غصن من أغصان الأشجار!

وعلى هذا النحو، قضى أكثر من عام، ثم إتفق معه صاحب مطحن بالمنطقة على أن يتولى إنشاء سفينة نقل لحسابه، ثم الإشراف على أول رحلة لها إلى مدينة «أورليان». فقام «إبراهام» بهاتين المهمتين خير قيام، وبلغ من إعجاب صاحب المطحن بخبرته ونشاطه وأمانته أن عينه مديرًا لمتجر يملكه في «نيوسالم».

زواجه وإشتغاله بالمحاماة

في ذلك الحين، كانت ثورة الهنود الحمر قد بلغت أشدها بزعامة «الصقر الأسود» رئيس قبائل «الساكس». ولم يجد حاكم الولاية بدًا من إعلان الحرب على أولئك الثائرين وفتح باب التطوع للإشتراك فيها. فأجمع المتطوعون من أهل «نيوسالم» على إختيار «إبراهام» قائدًا وزعيمًا ومرشدًا لهم. وكان هو عند حسن الظن به من أولئك المواطنين المتطوعين، فقاد كتيبتهم من نصر إلى نص ، وكانت خططه الحكيمة موضع تقدير الجميع. فلما إنتهت الحملة وعادوا لبلدتهم، ثم بدأت الإنتخابات العامة للمجلس التشريعي، أبوا إلا أن يرشحوه لعضوية المجلس، وكان عدد الناخبين منهم ٢٨٠ فإنتخبه من بينهم ٢٧٧.

وكان رئيس المساحة بالمنطقة في حاجة إلى مساعد فعرض هذه الوظيفة على «إبراهام» وأعطاه كتابًا في المساحة ليدرسه، فحفظه عن ظهر قلب في ستة أسابيع!

على أنه كان قد وطد عزمه على الإشتغال بالمحاماة، فعكف على دراسة كل ما تصل إليه يده من كتب القوانين، وإتفق في ذلك الحين أن إنقطعت أخبار خطيب الآنسة «آن» إبنة المستر «رتلج» صديقه الذي أسكنه بمنزله، وكان هذا الخطيب قد سافر إلى «نيويورك» لقضاء مصلحة له فيها بعد أن حدد موعد الزفاف، ثم أرسل من هناك خطابين، ضمن أحدهما نبأ مرض أبيه، ونعاه في الخطاب الثاني، ثم لم يعد أحد يعرف عنه شيئًا بعد ذلك، إلى أن فات موعد الزفاف. وقد شعر «إبراهام» بالعطف على الفتاة الحسناء إبنة صديقه، وما لبث هذا العطف أن تحول إلى حب قوي، جعله يطلب يدها لنفسه، فرحب والدها بذلك. ولم تكن «آن» أقل رغبة في قبول الخطيب الجديد، ولكنها تمنعت أول الأمر محتجة بأن خطيبها الأول قد يعود فجأة بعد قليل فلما إنقضى عام على إنقطاع أخباره، لم تجد بدًا من إعلان موافقتها على الزواج بإبراهام، ثم كانت له نعم الخطيبة الوفية الملهمة. وسرعان ما أتم دراسة القانون وإستوعب كل المؤلفات فيه، ثم أسعده الحظ في الإنتخابات النيابية التالية، فإنتخب عضوًا في المجلس التشريعي عن الولاية.

مكافحته لتجارة الرقيق

شهدت سنة ١٨٤٦ نصرًا جديدًا لإبراهام لنكولن المحامي القدير،

فقد فاز في إنتخابات «الكونجرس» فوزًا منقطع النظير، وطارت شهرته في السنين الأربع التاليات بوصفه نائبًا جريئًا عقد له لواء الزعامة في معارضة إعلان الحرب على المكسيك، وفي مكافحة تجارة الرقيق ، ولكن جهاده وإنتصاره في سبيل تحرير العبيد لم يلق ما يستحقه من النجاح الكامل المنشود، فإنتهى الأمر في سنة ١٨٥٠ بموافقة المجلس على تسوية غير كاملة، وذلك بإلغاء الرق في كاليفورنيا وكولومبيا، مع إبقاء الحق لصاحب العبد الآبق في إعتقاله وإعادته للرق والعبودية عنده حتى إذا كان في ولاية تحرم تجارة الرقيق!

إنتخابه رئيسًا للولايات

وفي مايو سنة ١٨٦٠ دعي إلى مؤتمر الحزب الجمهوري في «سبرنجفيلد» وكانت الحماسة في إستقباله بحيث لم يستطع بلوغ المنصة إلا بشق النفس. ثم لم تمض على ذلك عشرة أيام حتى أعلن فوزه في ترشيحات المؤتمر الوطني بشيكاغو ضد «وليام سيوارد» ممثل نيويورك في ذلك الحين. وترقب الجميع نتيجة المعركة القادمة لإنتخابات رياسة الجمهورية بين «لنكولن» و«دوجلاس» بصبر نافد، وما أعلن فوز «لنكولن» على خصمه العتيد حتى عمت البلاد موجة من الإضطرابات إنتهت بإعلان العصيان في الولايات الجنوبية.

وقد حرص «لنكولن» عند رحيله من «سبرنجفيلد» إلى «وشنطن» على إبقاء إسمه على لوحة مكتب المحاماة. وكان أشد ما يكربه أن الخزانة العامة خاوية، وأن الحرب الأهلية توشك أن تشب بسبب تمرد الولايات الجنوبية، فأعلن في خطبة إفتتاح المجلس النيابي أن الحكومة لن تهاجم المتمردين في الجنوب إلا إذا بدأوا مهاجمتها، ثم أخذ يكرر الدعوة إلى الإتحاد. ولكن الولايات الجنوبية لم تلبث أن هاجمت قلعة «فورت سومتر» في أبريل سنة ١٨٩١ فبدأ

القتال بين الفريقين من ذلك الحين، وبقي الصراع يشتد، وتزداد الخسائر، في الأرواح والأموال. وكانت إنجلترا تساعد الجنوبيين ضد الحكومة في الشمال حرصًا منها على مصالحها الخاصة عندهم. وكان «ويلي» إبن الرئيس لنكولن أحد الضحايا العديدين في تلك الحرب الضروس، فكانت فجيعته فيه عظيمة، لكنه بقي بعدها يعلن عطفه الشديد على المقاتلين جميعًا من الشماليين والجنوبيين على السواء، لأن هؤلاء وهؤلاء مواطنوه!

وفي سبتمبر سنة ١٨٦٢، أصدر «لنكولن» بيانه الخالد الذي ضمنه قرار تحرير أربعة ملايين من الرقيق، وما أقبل العام التالي حتى إشتد أوار القتال بين الفريقين، ووقف «لنكولن» يخطب الناس قائلًا: «إن هذه الأمة ستشهد مولدًا جديدًا لحريتها، وستكون حكومتها حكومة الشعب وستبقى خالدة أبد الدهر».

وفي العام التالي، أحرزت جيوش الشمال إنتصارات كبيرة وأعيد إنتخاب «لنكولن» رئيسًا للجمهورية، فأعلن في خطبة إفتتاح البرلمان أن الحرب الأهلية يجب أن تنتهي عاجلًا، لكي تبدأ البلاد عهدًا جديدًا سعيدًا من السلام والعدل والرخاء وحسن العلاقات بالشعوب الأخرى.

وفي التاسع من أبريل سنة ١٨٦٥ تحققت آمال لنكولن العظيم، فإنتهت تلك الحرب، وعادت إلى الأمة الأمريكية وحدتها، وزالت معرة الرق عن جبينها.